الوحدة الخامسة: مجتمع المعرفة كنهاية لنظرية التطور الكرونولوجي لماكلوهان

تمهيد:

يُعد مارشال ماكلوهان (1980/1911) من أبرز منظري علم الاجتماع الاتصال في القرن العشرين، حيث قدم رؤية ثورية لفهم العلاقة بين التكنولوجيا والمجتمع، وكذا تطور المجتمعات الإنسانية بناءً على وسائل الاتصال السائدة في كل مرحلة تاريخية، إذ يرى ماكلوهان أن "الوسيلة هي الرسالة" (The medium is the message)، أي أن طبيعة وسيلة الاتصال نفسها تُحدث تأثيرات اجتماعية وثقافية أعمق من المحتوى الذي تنقله، وقد قسم ماكلوهان التاريخ الإنساني إلى مراحل زمنية مرتبطة بوسائل الاتصال التي تطورت من الطباعة إلى الإذاعة والتلفزيون، قد أحدث تحولات كبيرة في كيفية إدراك البشر للعالم من حولهم.

1-مراحل التطور الكرونولوجي حسب مارشال ماكلوهان:

من خلال نظرية الحتمية التكنولوجية، اعتبر أن التقدم التكنولوجي في وسائل الاتصال سيؤدي حتمًا إلى تغييرات اجتماعية وثقافية تتمثل في:

- العصر القبلي (Oral/Tribal Age) حيث التواصل شفوي والهوية المجتمعية مشتركة.
- عصر القراءة والكتابة.(Literacy Age)
- عصر الطباعة (Print Age) الذي جلب التوسع في المعرفة والتنوير.
- العصر الإلكتروني (Electronic Age) حيث تتغير وسائل الاتصال بشكل جذري باتجاه الفورية والتشابك.

هذا التطور يربط كل مرحلة بتغيرات تكنولوجية محدثة تحولات في العلاقات الاجتماعية والهويات الجماعية.

2 .مفهوم مجتمع المعرفة في سياق نظرية ماكلوهان

يشير مجتمع المعرفة إلى المجتمع الذي يعتمد على المعرفة كمصدر رئيسي للقيمة والثروة، وينطلق هذا المفهوم من فرضية أن الوصول إلى المعلومات والمعرفة من خلال التكنولوجيا الحديثة، مثل الإنترنت ووسائل الإعلام الجديدة، يعزز من إمكانيات الأفراد والمجتمعات.، وفي سياق نظرية ماكلوهان، يعتبر مجتمع المعرفة بمثابة نتيجة للتطورات التكنولوجية التي غيرت من كيفية استخدام الأفراد للمعرفة وتفاعلهم معها، فمع توسع نطاق الإعلام الرقمي وظهور التواصل الفوري، أصبح من الممكن للجميع الوصول إلى المعلومات بسهولة، مما أدي إلى تحول المجتمعات إلى أنظمة تعرف بكونها مجتمع معرفة متشبث قائم على المشاركة والتفاعل، بمعنى آخر أن مجتمع المعرفة يمثل المرحلة المتقدمة من "القرية الكونية" التي تنبأ بها ماكلوهان، حيث تصبح المعرفة والمعلومات المورد الاقتصادي والاجتماعي الأساسي. ويتميز هذا المجتمع بعدة خصائص:

- المعلومات كسلعة رئيسية وأساس للقيمة الاقتصادية.
- الشبكات الرقمية كبنية تحتية أساسية للتواصل
- التعليم المستمر والتعلم مدى الحياة.
- اقتصاد قائم على الابتكار والإبداع المعرفي.
- الوصول الفوري للمعلومات من أي مكان.
- إنتاج واستهلاك المعرفة بشكل تشاركي وجماعي.

3-التغيرات الوراثية والتكنولوجية وصولا إلى مجتمع المعرفة

يربط ماكلوهان تطور المجتمعات ليس فقط بالتطور البيولوجي والوراثي، بل أيضاً بالتطور التكنولوجي، حيث التحول البشري بدأت بالتمازج مع التكنولوجيا. مثلا، القدرة على اللغة الكلامية والفكرية تطورت عبر مراحل انتقالية وقتية، والبشر الآن يدخلون مرحلة جديدة أكثر اعتمادية على التكنولوجيا الرقمية والتقنيات المعلوماتية. هذه المراحل التطورية توضح انتقال الوعي البشري من مكونات بيولوجية وبسيطة إلى أنظمة تكنولوجية معقدة تخلق واقعا اجتماعيا معرفيا. بالتالي يعتبر مجتمع المعرفة محصلة نهائية لهذه السلسلة التطورية، حيث المعرفة والتكنولوجيا تتداخلان لتوليد بنيات اجتماعية جديدة تعتمد على الاتصال والتقنيات الحديثة.

4-دلالات نهاية التطور الكرونولوجي في فهم ماكلوهان

لفهم ماكلوهان، نهاية التطور الكرونولوجي تعني أن المجتمع توقّف عن المضي قدما في مراحل متسلسلة زمنيا كما في العصور السابقة، وبدلا من ذلك يدخل في عصر متشابك وغير خطي حيث التقنيات والمعارف تتداخل وتتفاعل بشكل متسارع وغير متوقع، وهذا يعني أن التطور لم يعد متدرجا زمنيا فقط، بل أصبح متعدد الأبعاد حيث التكنولوجيا تخلق أحداثا طفرة معرفية واجتماعية فورية، وهنا ماكلوهان يرى أن هذا التحول يدفع المجتمعات إلى إعادة تشكيل هويتها وأنماطها التواصلية بشكل جذري، وتداخل الأبعاد الزمنية والتكنولوجية يؤدي إلى مجتمع معرفة معقد ومترابط.

وهذا الانتقال يعني أيضًا ضرورة إعادة التفكير في كيفية تشكيل الهويات الاجتماعية والثقافية، حيث أن الوسائل لم تعد مجرد أدوات لنقل المعرفة، بل أصبحت جزءًا لا يتجزأ من تجارب الأفراد وممارساتهم اليومية. إن فهم هذه الديناميات يتطلب إدراك المستويات المختلفة للتأثير الذي تتركه وسائل الإعلام والتكنولوجيات الحديثة على المجتمعات اليوم.

وفي الختام، يمكن القول أن مجتمع المعرفة ليس مجرد تطور تقني، بل هو نمط جديد من الحياة والتفاعل الاجتماعي الذي يتطلب إعادة نظر في نظريات التطور الاجتماعي كما طرحها ماكلوهان..